بعث الثقافة

وأثرهُ في النهضة العربية

لفريد حافظ طوقان [1]

وقد المحاضر محاضرته بذكر ما أدركته أمم الغرب وبعض أمم الشرق من ان بعث الثقافة أهم العوامل التي تستند اليها النهضات السياسية والحركات الاستقلالية وان الامة التي تبغي مجداً وسؤدداً عليها ان تخلق في الافراد روح الايمان بقابليتهم على الابتداع وان تنمّيهم فيهم الشعور بالعزة القومية وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها وتعريف الناشئة بجهود أسلافهم وما أثرهم في ميادين العلوم وما كان لهم من اثر في تقدم الحضارة . ثم أشار الى ما قامت الامتان اليونانية والارامية في هذا الميدان . ثم وجه الكلام الى الامة العربية وتراثها العقلي المجيد فقال : — [المحرر]

ان الامة العربية من الامم التي خلّفت آثاراً جليلة في ميادين المعرفة عادت على الحضارة بالتقدم والارتقاء . وقد لا يكون هناك امة لها ما للامة العربية من تراث خالد وأثر بليغ في سير العلوم فلولا تاج القريحة العربية لتأخر سير المدنية بضعة قرون

ومما يؤسف لهُ حقًّا اننا اهملنا تراثنا ولم نلتفت اليهِ ، وأنه باهمالنا هذا وعدم التفاتنا الى ما أثر اسلافنا اصبح لدى الكثيرين اعتقاد في عدم قابليتنا وأنه لم يكن لاجدادنا اي جهد فكري عالي ، وانهُ لم ينشأ بين العرب من استطاع ان يبلغ في ميدان العلم مبلغ علماء اوربا وعباقرتها

ومن اغرب ما نشاهده اليوم ان نجد كثيرين ينكرون على العرب مآثرهم في مختلف العلوم والفنون وقد يزيد استغرابكم اذا علمتم ان هذا الانكار سائد ومسيطر على المثقفين وأصحاب الشهادات والالقاب العلمية ، وليت الامر يقف عند هذا الحد — حد الانكار — بل يتعداه الى الاستخفاف بكل ما هو شرقي عامة وعربي خاصة والى التنقص من جهد السلف وفضلهم على المدنية ، بينما نجد في الغرب من قام يدافع عن الحقيقة لانها حقيقة ومن قام يظهر الحق لانهُ حق . وقد دفعهم الاخلاص للحقيقة ان ينصفوا الحضارة العربية بعض الانصاف فاعترف غير واحد بما للمدنية العربية من فضل على مدنية أوربا التي يفخرون بها . وقد ثبت لهم

---

(١) من المحاضرة النفيسة التي ألقاها فدوي حافظ طوقان في منتدى جمعية الشبان المسيحية بالقدس برآسة الاستاذ احمد سامح الخالدي عميد الكلية العربية بالقدس

انهُ كما تقدم العلماء في البحث عن نتاج قرائح العرب تجلى لهم فضل العرب على العلم والعمران بصورة أوضح وظهر لهم ان العرب سبقوا الغرب في وضع النظريات الرياضية والفلكية والفلسفية . وقد قال أحد علماء الفرنجة ان بعض ابتكارات واختراعات حسبناها من عملنا ثبت بعد قليل ان العرب سبقونا اليها . واعترف بعضهم بعلوّ كعب الحضارة العربية وبما أسدتهُ من خدمات جلى الى المدنية . قال فلوريان : « . . . كان للعرب عصر مجيد عُرفوا فيهِ بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلوم والفنون ، ولا نبالغ اذا قلنا ان أوربا مدينة لهم بخدمتهم الجلية — تلك الخدمة التي كانت العامل الاول والاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للبلاد . . . » . وقال (ولز) عن حضارة العرب ما يلي : « وكانت طريقة العرب ان ينشد الحقيقة بكل استقامة وبكل بساطة وان يجلوها بكل وضوح وبكل تدقيق غير تارك منها شيئاً في ظل الابهام . فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الاوروبيين من اليونان وهي نشدان النور انما جاءتنا عن طريق العرب ولم تهبط على اهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين . . . » ومما لا شكّ فيهِ ان الحضارة العربية هي حلقة الاتصال بين حضارة اليونان والحضارة الحالية فهم الذين حفظوا علوم اليونان وغيرها من الضياع وهم الذين نقلوها ونقلوا معها اضافاتهم الكثيرة الى اوربا عن طريق الاسبان ، ويعترف (البارون دي فو) بأن الرومان لم يحسنوا القيام بالميراث الذي تركهُ اليونان ، وبأن العرب كانوا على خلاف ذلك فقد حفظوه وأتقنوه ، ولم يقفوا عند هذا الحدّ ، بل تعدوه الى ترقية ما أخذوه وتطبيقه باذلين الجهد في تحسينهِ واتمامهِ حتى عاد للعصور الحديثة . وهم فوق ذلك أساتذة أهل اوربا اعترف بذلك العالم الافرنسي الكبير (سيديو) حيث قال : « وان نتاج أفكارهم النزيرة ومخترعاتهم الفنية تشهد انهم أساتذة أهل اوربا في جميع الاشياء . . . »

هناك أناس يضربون على نغمة جديدة اقتبسوها عن الجاحدين لفضل العرب والاسلام ، وهذه النغمة تدور حول قولهم ان العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ، ومن الغريب ان لا نجد من العرب من ردَّ عليهم ، ومن الغريب ان يكون الرد عليهم من عالم أميركي اشتهر بالبحث والتنقيب . قال الدكتور (سارطون) : « ان بعض الغربيين الذين يجربون ان يستخفوا بما أسداهُ الشرق الى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئاً ما . . . . هذا الرأي خطأ . . . لو لم تنقل الينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون . . » ويمضي الدكتور في كلامهِ فيقول : « . . . ولذلك فان العرب كانوا أعظم معلمين في العالم في القرون الثلاثة الثامن والحادي عشر والثاني عشر للميلاد . . . »

في العرب علماء عباقرة استطاعوا ان يُسدوا جليل الخدمات الى العلم كالتي اسداها نيوتن وفراداي ورنتجن وغيرهم من نوابغ الغربيين . وقد اعترف (ويدمان) بأن العرب أخذوا بعض النظريات

عن اليونان وفهموها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ثم أنشأوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة « فهم بذلك . . . » يقول ويدمان « . . . قد أسدوا الى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن وفراداي وريتجن . . . » والذي لا أشك فيه ان عالماً له مقامهُ العلمي الممتاز كالاستاذ (ويدمان) لا يأتي الكلام جزافاً وهو يعرف ما يقول ويزن كل كلمة يقولها بميزان الحقيقة والانصاف . انا أولى من غيرنا بمعرفة عبقريتنا وثوابتنا . انه لواجب مقدس علينا أن نهتم بتراثنا وبما أورثهُ أسلافنا الى الاجيال . أليس من العيب الفاضح علينا ان لا نعرف ان الخوارزمي هو من كبار رياضي العالم وانهُ أول من وضع (الجبر) بشكل مستقل عن الحساب وقد بوَّبهُ ورتبهُ وزاد عليه زيادات هامة تعد اساساً لكثير من بحوثه . وعلم الجبر — يا سادتي — من اعظم اوضاع العقل لما فيه من الدقة واحكام في القياس

ولقد جمع العرب بين الجبر والهندسة وطبقوا الهندسة على المنطق كما طبقوا أكثر العلوم على مختلف مرافق الحياة . واعترف (كاجوري) بفضل العرب على الجبر فقال « . . . ان العقل ليدهش عند ما يرى ما عمله العرب في الجبر . . » وقال ايضاً . « . . . ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط من اعظم الاعمال التي قام بها العرب . . . » ويمكن القول ان بحوث العرب في الجبر والهندسة وفي إحكام العلاقة بينهما كانت سابقة لبحوث (ديكارت) و(فرما)

أليس غريباً ان لا يعرف كثيرون ان العرب هم الذين هذبوا الارقام الهندية التي نستعملها الآن والتي وصلت الغرب بواسطة الكتب العربية . وليس المهم هنا تهذيب العرب للارقام بل المهم ايجاد طريقة جديدة لها ، طريقة الاحصاء العشري ، واستعمال الصفر للغاية التي نستعملها الآن ووضع علامة الفاصلة للكسر العشري . ان اثر ذلك في تقدم الرياضيات والعلوم الاخرى وارتقاء الحضارة في مختلف نواحيها ليس مما تسهل المبالغة فيه

هل تعلم شيئاً عن البتاني الذي امتاز على غيره بمواهبه وقد تبوأ مركزاً عالياً في ميادين العلوم ولاسيما في الفلك والمثلثات والجبر والهندسة . ولقد اطلع (لالاند) وهو عالم غربي لمع في سماء البحث والاستقصاء والانتاج ، اقول اطلع (لالاند) على مآثر البتاني فكان ان عدَّه من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله . وكان من العرب علماء آخرون ادهشوا الاوربيين وحملوهم على الايمان بعبقرية العقل العربي وابداعه ؛ ومن هؤلاء العلماء ابن سينا الذي قال عنهُ (سارطون) انهُ من اشهر مشهوري العلماء العالمين . والكندي الفيلسوف الذي سرى ذكره في كل ناد ، وهو من الذين امتازت مواهبهم بنواحيها العديدة ومن الذين عدَّهم (كاردانو) العالم الايطالي الشهير من الاثنى عشر عبقرياً الذين هم من الطراز الاول في الذكاء في العالم كله

أليس من المؤسف حقاً ان لا يعرف الناشيء العربي ان اجداده تبنَّوا الكيمياء وانهم

ابدعوا فيها وانهم سبقوا غيرهم في الالتجاء الى التجربة ليتحققوا من صحة بعض النظريات . والهم يرجع الفضل في استحضار كثير من المركبات والاحماض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة. فلقد استحضروا مركبات تستعمل الآن في صنع الصابون والورق والحرير والمفرقعات والاصبغة والسماد الاصطناعي . وقد يجهل كثيرون ان جابر بن حيان هو من أمع علماء الكيمياء العالمين ومن الذين اضافوا اضافات هامة الى الثروة الانسانية العلمية جعلته في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم الفكر

وقد تدهشون (ايها السادة) اذا قلنا انهُ وُجد في الامة العربية من اشتهر في كثير من العلوم كالبيروني وانهُ كان ذا كعب عال فيها . ففاق علماء عصره وعلا عليهم وكانت لهُ مبتكرات كبيرة الشأن وبحوث نفيسة في الرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافيا . وقد توصل (شاو) العالم الالماني بعد دراسة حياة البيروني وبعد اطلاعه على مؤلفاته الى الوقوف على حقائق لم تكن معروفة خرج منها باعتراف خطير وهو : « ان البيروني اعظم عقلية عرفها التاريخ » . ولو ان هذا الاعتراف صدر عن باحث عربي لرُمي بالتحيز والمغالاة ، لكنهُ بحمد الله صادر عن عالم يزن كلامه ولا يبدي رأياً الا بعد بحث وتمحيص . و(شاو) هذا يقترح أن تؤلف جمعية لتمجيد البيروني واحياء مآثره . واني اقترح على الاستاذ الخالدي — ونحن في هذا الصدد — أن يعمل على احياء ذكر البيروني باقامة مهرجان (على غرار مهرجان الجاحظ) يدعو اليه العلماء من الاقطار العربية ليتكلموا في تاج البيروني في نواحيه المتعددة ، وبذلك ينصف عالماً كبيراً اسدى الى العلوم والمدنية اجل الخدمات . ومن بحاث الغرب من حملتهُ دراسته للتاريخ والجغرافيا على القول بان مقدمة ابن خلدون هي اساس التاريخ وحجر الزاوية فيه وان كتاب معجم البلدان لأبي عبدالله ياقوت هو معجم غني جداً بالمعرفة وليس له من نظير في سائر اللغات

لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن ، فاليهم يرجع الفضل في وضعه بشكل مستقل عن الفلك وفي الزيادات الاساسية الهامة التي جعلت الكثيرين يعتبرونهُ علماً عربيًّا . ولا يخفى ما لهذا العلم من اثر في الاختراع والاكتشاف وفي تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية . ونظرة الى بحوث الضوء ونظرياته تثبت انهُ لولا العرب لما تقدم هذا العلم تقدمه الحاضر . يقول (ماكس مارهوف) . «ان العرب اسدوا جليل الخدمات الى هذا العلم الذي تتجلى لنا فيه عظمة الابتكار الاسلامي .. »

وبقيت كتب ابن الهيثم في البصريات منهلاً ينهل منهُ أكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن وبول واتيلو وليوناردفنشي وكوبرنيكس وكبلر وغيرهم . وتعترف دائرة المعارف البريطانية بان كتابات ابن الهيثم في الضوء أوحت اختراع النظارات . ويمكن القول ان ابن الهيثم هو من

عباقرة العالم الذين أسدوا الى العلوم خدمات لا تثمن . ومن يطلع على مؤلفاته ورسائله تتجلى لهُ المآثر التي خلفها مما ساعد كثيراً على تقدم علم الضوء الذي يشغل فراغاً كبيراً في الطبيعة والذي لهُ اتصال وثيق بأهم المخترعات والمكتشفات والذي لولاه لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ، تقدماً مكَّن الانسان من الوقوف على بعض أسرار المادة في دقائقها وجواهرها وكهاربها وعلى الاطلاع على ما يجري في الاجرام السماوية من مدهشات ومحيرات . وأثبتت التحريات الحديثة بأن العرب هم الذين اخترعوا الرقاص والاسطرلاب واكتشفوا الحال الثالث في حركة القمر . وبأنهم من الذين عمدوا لايجاد التكامل والتفاضل واللوغارتمات ، وبانهم من الذين قالوا بدوران الارض كما ان ارصادهم تقيم الدليل على اهليلجية فلك الارض وقد سبقوا (غاليليو) في وضع بعض قوانين الرقاص . وإذا شئت المضي في تعداد مآثر العرب في العلوم والفنون طال بنا القول وقد نخرج عن موضوع المحاضرة

أيها السادة — يظهر مما مرَّ أن في الغرب منصفين ، وان في الغرب من حفزهُ الانصاف والروح العلمية الصحيحة الى الاهتمام بالتراث العربي والاعتراف بعظمة النتاج الذي خلَّفهُ العقل العربي للعلم والعمران . وقد ثبت لهم ان المدنية العربية مدنية يزدان بها التاريخ ويحق للدهر أن يفاخر بها . وأرى ان هذه المدنية لو لم تكن حافلة بالمآثر مليئة بالمفاخر ، سامية رائعة لها طابعها الخاص وخصائصها الممتازة لما اشتغل بها الغربيون ولما كتبوا عنها المجلدات ولما اهتمت جامعاتهم بالبحث عن آثارها والغوص على كنوزها . فلقد قدرت جامعة (برلستون) الاميركية خدمات العرب وافضالهم على الانسانية والثقافة فراحت تخصص أقسام ناجحة في اجل ابنيتها لمآثر علم من أعلام الحضارة الخالدين — الرازي — كما راحت تنشىء داراً لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات واخراجها ونقلها الى الانكليزية حتى يتمكن العالم من الاطلاع على اثر التراث العربي في تقدم العلم وازدهار العمران . وعلى الرغم من هذا الاهتمام ، وعلى الرغم من البحوث التي قام بها العلماء في تراثنا فلا نزال هناك نواحٍ لم تسطحها من البحث والاستقصاء ولم يفض غبارها بعد غبار الاهمال . ومما لا ريب فيه أن مثل هذه البحوث والموضوعات ليست بالتي يمكن اعطاؤها حقها بسهولة . ولن يتمكن الباحثون والمنقبون من الوقوف على تاج العقل العربي كاملة وخدماته للانسانية الا اذا تابعوا استقصاءهم وواصلوا تنقيبهم ، وعندئذ يتمكنون من إزالة السحب الكثيفة المحيطة بتراثنا ومآثرنا

واذا كان في الغرب منصفون فان فيهِ كذلك من هو غير منصف أو من لهُ مطامع وأغراض لا تستقيم ونهوض العرب . فشوَّه كثير من الحقائق ، وقلب البعض الآخر ، وادخلت الشكوك والريب في كثير من الحوادث التي تمجد العرب ، وفوق ذلك أُخذ بعض النظريات والاختراعات العربية ونُسب الى غيرهم وقيل باسم العلم والحقيقة ان العرب غير منتجين وانهم لم يكونوا غير

ثقة ، وان الحضارة الغربية لم يكن لها أثر يذكر في سير المدنية الحاضر ، ووصم العقل الغربي بالجمود وبكونه دائماً عالة على غيره . وقد يسأل البعض هل من قصد وراء ذلك ؟ والجواب على هذا ان القصد التثبيط من عزائمنا وإدخال اليأس الى قلوبنا من نجاحنا ومن المؤسف حقاً ان تتحقق بعض غايات هؤلاء وبعض ما يرمون اليه ، إذ كان لذلك كله الاثر الكبير في عقلية طلابنا وكتابنا واخذ الاعتقاد بعدم قابليتنا يتسرب الى الكثيرين منا واصبحنا هدامين لحكاياتنا ، منكرين ميراثنا لا نرى فيه خيراً ولا جمالاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً ورحنا مفتونين بالحضارة الغربية عاكفين عليها مهملين تاريخنا وحضارتنا واصبحنا نعرف عن شكسبير وداني وجيتي وفراداي ونيوتن واديسون وباستور اكثر مما نعرف عن المتنبي والمعري والبيروني والبوزجاني والخوارزمي وابن الهيثم والبتاني وجابر بن الافلح وابن رشد والكندي والجريطي . . . و . . . وغيرهم . واصبحنا نرى في المدنية الاوروبية كل الخير وكل الجمال وكل المتاع وكل الانتفاع

أيها السادة — قد يسيء بعضكم الظن فيرى في أقوالي هذه دعوة الى اهمال العلوم الاوروبية ونبذ الحضارة الغربية . أنا لا أدعو الى ذلك ، ولا أطلب مقاومة تيار المدنية الحالية من كل النواحي . أنا أقول وأطلب ان ندرس الى جانب المدنية الاوروبية ثقافتنا وتاريخنا . أنا أقول بدرس ما يأتي به الغرب والتعرف على سببه ومسالكه وان نضيف الى ذلك ما في حضارتنا وثقافتنا من عناصر خالدة . نريد أن يعرف النشء العربي مآثر اجداده في ميادين العلوم والفنون ومكتشفاتهم فيها . نريد ان يشعر الناشيء العربي أن أجداده كانوا شيئاً في هذا الوجود ، وأنهم بالعمل الجدي استطاعوا ان يشيدوا حضارة شرقية عربية لا تزال أوروبا تتم بمآثرها . نريد ان يعتقد العربي بقابليته وان يؤمن بنبوغه وبأنه في إمكانه ان ينتج وان يبدع

سادتي : ان في استطاعة علماء العرب ومفكريهم ان يمهدوا لهذا كله بعقد مؤتمر للعلوم العربية (كما اقترح الدكتور مشرفة بك) تنحصر غاياته في بعث الثقافة العربية واحياء الآثار العربية بمختلف الوسائل : كانشاء مجمع دائم للدراسات العربية والاسلامية يعمل على نشر المؤلفات العربية مع شرحها وبيها باتقان معتدلة حتى يتمكن الجميع من الاطلاع عليها والوقوف على مآثر السلف وتراث الاجداد ، والعمل ايضاً على ادخال تاريخ العلوم العربية في برامج التدريس في الجامعات والكليات في الاقطار العربية ، وبذلك تستطيع هذه المعاهد ان تقوم بواجبها القومي والوطني ويصبح عندئذ معنى لوجودها . وقد اتصلت بعميد كلية العلوم في الجامعة المصرية الدكتور مشرفة بك وطلبت منه ان تقوم كلية العلوم بهذا العمل الخطير وان تتولى الدعوة لهذا المؤتمر . ويسرني ان تعلموا ان هذا الطلب تحت الدرس وتحت عناية السيد . وأملنا وطيد بأن فكرة بعث الثقافة عن طريق عقد هذا المؤتمر ستخرج قريباً الى حيز الوجود

لا أظن ان أحداً يخالفني في ان الحكومات العربية والجماعات وبعض الافراد في الاقطار العربية بدأت تسعى لسدّ النقص الذي لازم الحركات الوطنية والقومية مدة طويلة. فلقد بدأت النهضة الثقافية تسير حثيثاً وستعود على الامة باليقظة وعلى ابناء الجيل بالاعتزاز. وها نحن اولاء نجد ارباب المعاهد وبعض القائمين بأمر الحكومات العربية يهتمون باحياء تراث العرب واظهار مآثرهم وما قدموه من جليل الخدمات الى المدنية. مَن منا لم يسمع عن المهرجانات العديدة في مصر والمغرب وسوريا التي اقيمت احياء لذكرى شاعر العرب المتنبي؟ وقد كانت هذه المهرجانات موفقة ورائعة، نبيلة المقاصد سامية الغايات كشفت عن بعض النواحي التي كانت محاطة بغيوم الغموض والابهام

ومَن منا لم يقرأ عن اسبوع الجاحظ الذي اقامته كلية الآداب في الجامعة المصرية وقد تكلم فيه فريق من فحول الادب وأئمة البيان؟ بل ومن منا لم يلمح الحركة الجديدة نحو احياء الكتب القديمة واظهارها الى الناس والسعي لنفض غبار الاهمال عنها؟ وها هي ذي الحكومة المصرية تشترك مع الافراد والجماعات في بعث الثقافة العربية عن طريق احياء ذكرى كبار الادباء والشعراء ونوابغ رجال العلم والفن، وعن طريق اخراج المخطوطات وطبعها ونشرها. وهاهي ذي الحكومة السورية تعمل على اقامة مهرجان كبير احياء لذكرى المعري بمناسبة مرور الف عام على وفاته وقد انتهت من وضع تصميم لبناء ضريح الشاعر الفيلسوف في مسقط رأسه (المعرة) من ولاية حلب

ومن المبهج ان نجد هذا التوفز نحو بعث الثقافة العربية لا ينحصر في جهة واحدة؛ بل يشمل جهات اخرى. فقد اخبرني الدكتور مشرّفة بك ان في نيته اقامة مهرجان لاحياء ذكرى ابن الهيثم في عام ١٩٣٨ اذ يكون قد مرّ على وفاته تسع مئة عام. ولا شك ان هذا الاتجاه الجديد سيدفع بالحكومات العربية والجماعات والافراد الى اخراج مؤلفات نوابغ الرياضيين والطبيعيين ورسائلهم وجعلها في متناول المتعلمين. ولست بحاجة الى القول ان هذه النهضة لا تزال في اولى مراحلها ونحن لم نقطع فيها بعد شيئاً جديراً بالاعتبار. ولكن ما تراه من الشروع في الاهتمام بالتراث العربي لما يؤكد لنا ان العرب أصبحوا يدركون ان بعث الثقافة واحياء القديم وربطه بالحاضر من أقوى الدعائم التي عليها يبنون كيانهم ويشيدون استقلالهم

وأختم كلامي بأنهُ ما من أمة تستطيع احترام حاضرها وتحقيق مثلها العليا اذا لم تكن على صلة بماضيها محترمة لهُ واقفة على ما فيهِ من جلال وبهاء، وعلى الامة التي تبغي عزًّا وتبغي سؤددًا أن تصل ماضيها بحاضرها وان تبني حضارتها على حضارة أسلافها؛ وبذلك لا بغيره تستطيع تلك الامة ان تشعر ناشئتها بأن لهم كياناً محترماً وشخصية مستقلة، وهذا كلهُ يدفع بالامة الى حيث المجد والعظمة